من دروس الهجرة
التوكل والأخذ بالأسباب

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة إلى المدينة مع ما في الهجرة من مشقة وتعب ومخاطر على حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

واللهُ عزوجل كان قادرا على حملِ نبيِّهِ ﷺ في غمامةٍ أو سحابةٍ أو يسخرُ له الريحَ – كما سخرَها لسيدِنَا سليمان - فتحملُه في طرفةِ عينٍ مِن مكةَ إلى المدينةِ، ولكن اللهَ يريدُ أنْ يعطينَا درسًا هاما وهو التخطيطُ للأمور الهامة مع الأخذُ بالأسبابِ.

فتعالوا بنا نتوقف مع هذا الدرس العظيم من دروس الهجرة النبوية وهو الأخذ بالأسباب وعلاقته بالتوكل على الله تعالى.

تعريف السبب:

السبب هو: كل ما يتوصل به إلى مطلوب من حبل، أو وسيلة، أو رحم، أو قرابة، أو طريق، وغير ذلك .

ولفظ السبب ورد في القرآن على أربعة معان:

@فجاء لفظ (السبب) بمعنى (الباب)، وبه فُسر قوله سبحانه: ﴿**وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ**﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] ، أي: أبواب السموات.

@وجاء لفظ (السبب) بمعنى (المنزل) و(الطريق)، وبه فُسر قوله عز وجل: {فأتبع سببا} (الكهف:٨٥) يعني: ثم سار طرقاً ومنازل، وسلك سبلاً حتى بلغ مقصده الذي أراد.

@وجاء لفظ (السبب) بمعنى (العلم)، وبه فُسر قوله تعالى: ﴿**وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤**﴾ [الكهف: ٨٤] وهو العلم به

@وجاء (السبب) بمعنى (الحبل) وبه فُسر قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥**﴾ [الحج: ١٥] قال ابن عباس رضي الله عنهما في المراد من الآية: (من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً، فليربط حبلاً في سقف، ثم ليختنق به حتى يموت). كما يقال للحاسد إن لم ترض هذا فاختنق ومت غيظا.

تعريف التوكل:

صدق اعتماد القلب على الله تعالى في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة قال رب العالمين: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيرِ} وقال :{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}

وأمر به المؤمنين: فقد قال الله تعالى في سبعة مواضع من القرآن :{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}

<u>التوكل والأخذ بالأسباب.</u>

لابد هنا من لفت الانتباه إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنّ التوكل لا ينافي أخذ الأسباب بل الأخذ بالأسباب من تمام التوكل على الله.
وقد أخذ صلى الله عليه وسلم بالأسباب وهو سيد المتوكلين فقد ظاهر بين درعين يوم أحد. واستأجر دليلا مشركا يدله على طريق الهجرة.
@ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكّل، أو أطلقها وأتوكّل؟ -لناقته- فقال صلى الله عليه وسلم: «اعقلها وتوكّل» [سنن الترمذي].
وثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى} وكان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته يحملون الزاد في السفر للجهاد أو الحج والعمرة .
عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ، يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، قَالَ: فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ، قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» د ليل على أنه لابد من بذل الأسباب وعدم الاتكال.
الأمر الثاني: تتخذ الأسباب وإن كانت ضعيفة في نفسها.
ولذلك أمر الله تعالى أيوب عليه السلام أن يضرب الأرض برجله بعد أن دعا لمرضه ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: ٤٢] ، وهل ضربة الصحيح للأرض منبعة للماء؟ لا، ولكن الله يريد أن يعلمنا أنه لابد من اتخاذ السبب ولو كان ضعيفاً، فالأمر أمره، والكون كونه، ولكن لابد من فعل الأسباب.
ولما أراد الله أن يطعم مريم وهي في حالة وهن وضعف أمرها أن تهز جذع النخلة ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥]؛ لأن السبب يتخذ ولو ضعف.
@كما أمر الله موسى بضرب البحر بعصاه وما يفعل العصا في البحر .
قال تعالى عن موسى عليه السلام: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: ٦١-٦٢].
البحر أمامه، وفرعون خلفه، والجبال الشاهقة ترى عن يمينه وشماله، ومع ذلك :{ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.
﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦]
الأمر الثالث: أن لا يعتمد عليها، وإنما يجعل اعتماده على الله تعالى.
ابذل السبب ولو كان يسيراً، واعلم أنّ الله هو مسبب الأسباب، ولو شاء أن يحول بين السبب وأثره لفعل سبحانه، ولذا لما أُلقي إبراهيم في النار لم يحترق لأن الله قدر ذلك، وإسماعيل عليه السلام لما أمرَّ أبوه السكين على عنقه وهي سبب في إزهاق الروح لم تزهق روحه؛ لأن الله لم يأذن في ذلك.
فلا يعتمد إلا على الله، وتتخذ الأسباب؛ لأن الله يقدر الأمور بأسبابها.

ويتأكد التوكل على الله في بعض المواطن:

عند نزول الفاقة:

ففي جامع الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللَّهِ فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ».

عند نزول المصائب وحلول الكرب:

قال تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ٥١].

وفي الصحيحين عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ :«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

وفي سنن أبي داود قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».

عند الخروج من المنزل:

ففي سنن أبي داود عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وتنحَّى عنه الشيطانُ، فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجلٍ قد هُدي وكفي ووقي».

عند طلب الرزق:

ففي سنن الترمذي وابن ماجة: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا».

الخطبة الأولى

صورة من الصور المنتشرة والتي تقدح في التوكل:

التشاؤم.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر » زاد مسلم في رواياته: وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ".

لا: نافية للجنس والمنفي: التأثير ليس الحقيقة.

المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها. والنفي في هذا أبلغ من النهي، لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه ولعله يكون له نفع أو تأثير.

قوله (لا عدوى) كان أهل الجاهلية يعتقدون إضافة الفعل لغير الله وأن الأشياء تعدي أو تنفع وتضر بنفسها.

الرسول صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نأخذ بالأسباب كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "فر من المجذوم فرارك من الأسد" وقوله: "إذا سمعتم بالطاعون في بلد فلا تدخلوها" وقوله: "لا يوردن ممرض على مصح".

فإن أصابتك عدوى فليكن اعتقادك أن هذا بلاء نزل بك بتقدير الله وان الله هو الذي أعداك كما يرشد إيه جواب النبي للأعرابي الذي قال له: "الإبل تكون في الرمال كالظباء ثم يأتي البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها؟ قال صلى الله عليه وسلم: "فمن أعدى الأول".

"ولا هامة" بالتخفيف وهو طير كأنه البومة يتشاءمون منه فإذا مر عليهم أو وقف على بيوتهم يقولون نعي لي نفسي أو أهل بيتي.
"ولا صفر" بفتح الفاء وقيل هي حية تكون بالبطن تعدي الماشية والناس وهي عندهم أعدى من الجرب.
وكان أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر مشؤوم، فأبطل صلى الله عليه وسلم ذلك، والتشاؤم به من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح خاصة.
"ولا نوء" قال الشيخ العثيمين: واحد الأنواء، والأنواء: هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة. وهذه النجوم بعضها يسمى النجوم الشمالية، وهي لأيام الصيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبية، وهي لأيام الشتاء، فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون بها; فبعض النجوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بالعكس يتفاءلون به فيقولون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا أمطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية الجهل.
ألسنا أدركنا هذا النوء بعينه في سنة يكون فيه مطر وفي سنة أخرى لا يكون فيه مطر؟ ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كانت كثيرا ما يكون في زمنها الأمطار.
فالنوء لا تأثير له; فقولنا: طلع هذا النجم، كقولنا: طلعت الشمس; فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقدير، وهو يدل على دخول الفصول فقط.
وفي عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجوي والمنخفض الجوي، وهذا وإن كان قد يكون سببا حقيقيا، ولكن لا يفتح هذا الباب للناس، بل الواجب أن يقال: هذا من رحمة الله، هذا من فضله ونعمه، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ} ١ وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ} ١.
فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية من الأمور الجاهلية التي تصرف الإنسان عن تعلقه بربه. فذهبت أنواء الجاهلية، وجاءت المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الأقوال التي تصرف الإنسان عن ربه - سبحانه وتعالى -. نعم، المنخفضات الجوية قد تكون سببا لنزول المطر، لكن ليست هي المؤثر بنفسها، فتنبه".
ويدخل في ذلك" أنت والنجوم" وقولهم: "نجمتني". فهو من باب اعتقاد تأثير النجوم.
"ولا غُول" وهي جنس من الشياطين وهي لا تضر ولا تنفع إلا بإذن الله وقدره. قال الشيخ العثيمين: " العرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يمينا أو شمالا تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتدخل في قلوبهم الرعب والخوف، فتجدهم يكتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلى هذا الوجه الذي أرادوا، وهذا لا شك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقدر ما يستطيع، قال تعالى: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ}.
ولا طيرة" وفي المصباح: ((كانت العرب إذا أرادت المضي لمهم مرت بمجامع الطير وأثارتها لتستفيد هل تمضي أو ترجع؟ فنهى الشارع عن ذلك، وقال: "لا هامة ولا طيرة"، وقال: "أقروا الطير في وكناتها" أي على مجاثمها)). ا هـ. ومر طائر يصيح فقال رجل:- خير خير. فقال ابن عباس: لا خير ولا شر، فأنكر عليه لئلا يعتقد تأثيره، وصاح غراب فقال رجل: خير. فقال طاووس: وأي خير عند هذا؟ لا تصحبني.
د عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، ثلاثا" قال ابن مسعود: "وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل".

واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:
الأول: أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله.
الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخييل; فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل له، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد; لأن التوحيد عبادة واستعانة، قال تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} . وقال تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} .

الأسباب قسمان:

باطنة لا تعرف إلا من قبل الشرع كالمعاصي سبب لدخول النار والطاعات الجنة.
وظاهرة يشترك في معرفتها جميع الناس كالنار محرقة والسم قاتل.
فمن ادعى أن شيئا سببا لشيء ولم يكن ظاهرا ولا عليه دليل من الشرع فهو شرك كقولهم: عن روث الطائر إذا أصاب أحدا أنه سيكتسي ملابسا جديدة. وفتح المقص وقلب النعل يورث الفقر وحكة اليد دليل على رزق قادم ورمش العين دليل على رؤية غائب ولبس الحظاظة لجلب الحظ ...

المستثنى من ذلك:

١-الكلمة الطيبة. خ م عن أنس: "لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل. قالوا: وما الفأل؟ "قال: "الكلمة الطيبة". وفي رواية ولا ترد مسلما ولا يقصد لها . كما قال سهل عليكم وكما عتد ت عن أنس كان صلى الله عليه وسلم إذا خرج لحاجته يحب ان يسمع يا نجيح يا راشد".
٢-من الأسباب الظاهرة خ م عن أنس إنما الشؤم في ثلاثة: المرأة والفرس والدار" .
ولذلك من السنة أن تسأل الله خير الأشياء الجديدة.
وشؤم المرأة لا تلد وسليطة اللسان. وشؤم الدار سوء جيرانها وضيق جدرانها. وشؤم الدابة لا تبلغك مقصدك ولا تجاهد عليها.